

من معجم إلى معجم (*)

ألفريد لويس دي برومار

ملخص البحث

يتناول الكاتب تجربته في تعلمه للغة العربية، حيث بدأها بالعامية، ثم تدرج إلى الفصحى. وقارن بين اللغتين : العامية والفصحى، ووصل إلى نتيجة أنه يجذب انتشار الفصحى، حتى تكون الرابطة التي يستطيع أن يتخاطب بها الناس في المشرق والمغرب سواء بسواء، حسب تجربته الشخصية. ثم تطرق بعد ذلك إلى إبداء ملاحظات حول بعض المعاجم التي ألقت للناطقين بهجر العربية، ويدعو إلى مزيد الاهتمام بذلك، وأن تتجه في لغتها إلى البساطة والحدأة، حتى لا يصعب ذلك على المتعلم الأجنبي. واستشهد في ذلك بأقوال عدد من الأقدمين، أمثال : ابن خلدون والمقري.

لا أستطيع في إطار هذا العرض البسيط أن أذكر جميع الحاجات العامة التي قد يجب على واضع المعجم العربي للأجانب أن يلبّيها ولا جميع الحاجات الخاصة التي قد يجب أن يراعيها في كل مرحلة من مراحل تعلّمهم اللغة العربية خصوصاً وإني لست على علم بالحاجات الخاصة بالمتعلم الإفريقي ولا بحاجات المتعلم الأندونيسي أو الباكستاني ولا بحاجات غير هؤلاء المتعلمين من أبناء البلدان الأجنبية الأخرى.

وكذلك قد تختلف الحاجات باختلاف الأفراد واختلاف الأوساط الاجتماعية التي يعيشون فيها واختلاف أنواع العلاقات التي تربط بينهم وبين أبناء اللغة العربية من دينية ودراسية وتجارية وسياسية وغيرها.

فلا أجد مفراً من أن اتحدّث عن تجربتي الشخصية بصفتي فرنسيا بدأت في تعلم اللغة العربية هنا في الرباط وأنا طفل عشر سنوات، إذا كانت هذه التجربة خاصة بي فإن فيها بعض عناصر لعلها تكون فرصة سانحة لتبادل الآراء بيننا أثناء هذه الدورة.

قلت إني تعلمت اللغة العربية هنا في المغرب منذ القسم الأول

يجب علينا — ونحن بصدد هذه الدورة التدريبية في صناعة المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى — أن نسأل سؤالاً لا بدّ من جعله في مقدّمة اهتمامنا وهو :

إلّا ما يحتاج الأجنبي الذي عزم على تعلّم اللغة العربية وما هي أنواع الأدوات المعجمية التي من شأنها أن تساعد في سبيل الحصول على هذه اللغة ثم التعمّق فيها وجعلها آلة فعّالة للتبادل والتخاطب والقراءة والكتابة والبحث والدراسة في شتى الميادين ؟.

نعم، إنّ واضع المعاجم العربية للناطقين باللغات الأخرى مضطّر إلى مراعاة أمرين اثنين :

أولهما موقع اللغة العربية من المتعلّمين الأجانب، أعني : كيف تبدو لهم اللغة العربية وما هو الهدف الذي يسعون وراءه حينما يمزجون على تعلّمها ؟ وقد يختلف موقع اللغة العربية منهم شيئاً ما عن موقعها من أبناء اللغة العربية.

وثانيهما : حاجتهم إلى أدوات معجمية خاصّة بهم وفعّالة لتلاهم كل مرحلة من مراحل تعلّمهم من جهة، وتلاهم ميادين استعمالهم اللغة العربية من جهة أخرى.

(*) بحث مقدم إلى الدورة التدريبية في صناعة المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى، بالرباط في الفترة من 1 — 8 أبريل 1981.

من دراساتي الثانوية وكنت آنذاك في مدرسة فرنسية حرّة كانت ادارتها قد جعلت اللغة العربية مادة إجبارية على جميع التلاميذ.

وكنا نبدأ باللغة العربية المستعملة في المغرب أعني اللغة العامية المغربية، وذلك مدّة سنتين، ثم، ابتداء من السنة الثالثة للدراسات الثانوية كنا نترك اللغة العامية جانباً، وكنا ندرس اللغة العربية الفصحى بقواعدها الصرفية والنحوية ومفرداتها وتراكيبها وآدابها، وذلك إلى آخر الدراسات الثانوية حيث كنا نتقدّم للبكالوريا واللغة العربية الفصحى هي اللغة الأجنبية الحية الأولى في برنامج الامتحان.

لنرجع الى تلك المرحلة الأولى لتعلمنا اللغة العربية.

نعم اللغة التي كنا نتلقّاها آنذاك كانت — مبدئياً — اللغة العامية المغربية. والمعجم الذي كنا نستعمله في تلك الفترة إلى جانب الأدوات اللغوية الأخرى، كان القاموس المزدوج عربي — فرنسي / فرنسي — عربي الذي وضعه الأستاذ نجيني، أستاذ اللغة العربية في الثانوية الفرنسية الرسمية بالرباط (ثانوية الحسن الثاني حالياً).

وإذا نظرت الآن إلى هذا القاموس الذي مازال في مكتبي الشخصية، لاحظت أن اللغة التي كنا نتعلمها كانت في الحقيقة لغة بسيطة :

كانت بسيطة بمعنى أنها وحدت بين اللهجات المغربية المحلية — من لهجة طنجة ولهجة فاس ولهجة الرباط ولهجة مراكش — من جهة،

وكانت بسيطة من جهة أخرى، بمعنى أنها قرّبت اللغة العامية المستعملة في الأوساط الشعبية لمدينة المغرب الكبرى إلى نوع من لغة عربيّة فصيحة وهي التي كانت متداولة في الأوساط المغربية المثقفة.

خصوصاً وأن جميع المفردات التي اشتمل عليها القاموس عربي — فرنسي كانت مكتوبة بالحروف العربية — لا بالحروف اللاتينية كما هو شأن عدة قواميس اللغة العامية الموضوعة للأجانب — وكانت مرتبة ترتيباً جديداً يرجع كل كلمة إلى أصلها العربي.

وإلى جانب ذلك كانت القواعد الصرفية والنحوية التي كنا نتعلمها تراعي أيضاً قدراً غير قليل من القواعد العامة لكل لغة عربية وإن سقط منها الأعراب — كما سقطت من الكتابة من جهة أخرى، الصوتيات الخاصة بلغة المغرب ولم تبق هذه الصوتيات إلا في النطق بالكلمات والجمل، أي في الكلام الشفهي.

وفي الوقت ذاته لم تكن «لغة موحدة» بمعنى أنها اللغة النظيفة

التي تستعمل اليوم في جميع الوسائل الاعلامية من صحافة وإذاعة وتلفزة. ذلك أنها كانت متأصلة راسخة في الحياة الاجتماعية المغربية اليومية ومنبثقة عنها بما فيها من حيوية وتشويق الأطفال إليها، ذلك بفضل طرق تربوية فعالة كتمثيل مسرحيات قصيرة أمام أساتذة المدرسة نقتبس موضوعاتها من التراث الشعبي كنوادير جحا مثلاً، وهو تراث يشارك المغرب فيه جميع البلدان العربية الأخرى.

إلى غير ذلك من الطرق التربوية التي صارت منتشرة في وقتنا الحاضر كصوير الكرائيس صوراً تمثل جحا (أو غير جحا) في مواقف مختلفة، وتزويق الخط العربي في التعاليق على تلك الرسوم والنسخ....

والمقصود من هذا النوع من التعليم في المرحلة الأولى من دراستنا كان أن نتعود على الكلام وعلى التخاطب وعلى فهم ما يقال وافهام ما نريد، في المجتمع الذي كنا نعيش فيه شأننا في ذلك شأن العرب أنفسهم عبر العصور وإلى يومنا هذا :

قال ابن خلدون في مقدمته — وهو يذكر الفرق القائم في عهده بين اللغات العربية المستعملة في الأمصار الاسلامية الكبرى وبين ما يسميه بلغة مضر

«وقفدان الاعراب ليس بضائر لهم وكل منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة».

وإليكم ما كتب الأستاذ نجيني في مقدمة القاموس الذي كنا نستعمله، ونحن نشعر من وراء قوله «بفلسفته اللغوية» (إذا صح هذا التعبير) وهو يضع قاموسه :

قال بأنه جمع فيه بين ما يسمّى باللغة العربية العامية (*l'Arabe vulgaire*) وبين اللغة الفصيحة (*la langue classique*) كلّما اقتضاه الحال، أي أنه أدخل اللغة الفصيحة في قاموسه كلما تعلق الأمر بالألفاظ المجردة (*les termes abstraits*) والألفاظ العلمية (*les termes savants*) ثم قال :

«ذلك أن لغة التخاطب — ولغة المغرب أكثر من غيرها — لا تشتمل على اللغة الشعبية — أي اللغة العامية — فحسب، بل أنها تشتمل أيضاً على لغة طبقة ذات أهمية كبرى وهي طبقة البرجوازيين والارستقراطيين والمثقفين والعلماء، أعني «لغة الطلبة».

هذا نوع من أنواع المعاجم العملية الموضوعة لطائفة معينة من الأجانب في فترة معينة من الزمن، وفي ظروف معينة ولأغراض معينة.

الاستعمال الخاصة بها أيضاً، واللغات العامة من جهتها — وإن كانت أصولها عربية — صارت «لغات قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر» كما قال ابن خلدون وهو يتحدث عن لغات الأمصار الإسلامية الكبرى لعهد.

ولا يعني هذا أنه في الواقع لا توجد علاقات وصلات وجسور كثيرة بين المستويين من اللغة العربية وخاصة في عصرنا الحديث هذا الذي نشاهد فيه تطور كل من النوعين واقترب كل منهما إلى الآخر في جميع البلدان العربية.

ولكن في الميدان التربوي، وكذلك في ميدان البحث العلمي — والمعجم أداة من أدوات التعليم كما هو أداة من أدوات البحث العلمي — ما زلت أحتاج إلى نوعين من المعاجم، يتميز كل نوع عن الآخر وفي نفس الوقت يكمل بكل نوع الآخر: أي معاجم اللغة الفصيحة بما فيها من معاجم اللغة العامة ومعاجم خاصة بالمهاجرين التي يمكن أن أهم بها يوماً من الأيام، ومعاجم اللغات العامة وخاصة معاجم اللغة العامة المغربية مادمت أهم اهتماماً خاصاً بتاريخ المغرب وبحضارته.

ولو وجد معجم شامل للغة أهل الأندلس في القديم لاستفدت منه أيضاً في الدراسات التي قمت بها حول الحضارة الإسلامية في الأندلس ذلك أن كتب التاريخ المتعلقة بالمدونة الأندلسية فيها مفردات خاصة كانت متداولة في لغة أهل الأندلس فأدخل المستشرق R. DOZY عدداً منها في معجمه المسمى *Supplément aux dictionnaires arabes* وأذكر في هذا الصدد ما قاله المقرئ صاحب كتاب «نفع الطيب» وهو يتحدث عن ولع أهل الأندلس بعلم النحو. قال المقرئ:

«مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلويني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرقت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه».

إذا كان هذا هو الحال عند عالم من علماء النحو من استعمال لغة أهل الأندلس وهو يقرئ درسه، فبالأحرى من المتوقع أن نجد في كثير من كتب المؤرخين الأندلسيين مفردات ومصطلحات وتعبيرات خاصة بأهل الأندلس مما يستلزم الرجوع إلى معاجم خاصة كمعجم R. Dozy الذي ذكرته آنفاً، فلا يستطيع الباحث أن يكفي بالمعاجم العامة للغة العربية سواء كانت مزدوجة اللغة أو باللغة العربية وحدها. خصوصاً وأن المعاجم العربية الحديثة التي

وضعت في الشرق مثل «المعجم الوسيط» وكذلك المعاجم العربية القديمة، قليلاً ما هم بهذه الظاهرة المحلية للغة العربية في غرب العالم الإسلامي وهي حقائق لغوية قد يبقى الباحث حائراً أمامها إذا اكتفى بالأدوات المعجمية العادية. وإليك على سبيل المثال نص يتعلق بتاريخ المغرب في القرن العاشر هـ/السادس عشر م، وجدته في كتاب تراجم عنوانه:

مرءة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن محمد العربي الفاسي (المتوفى سنة 1005 هـ/1642 م).

كان لباسه معتدلاً يلبس قميصاً حسناً وسراويل كذلك. فإن كان المصيف زاد قشابة قطن... وربما لبس فوق ذلك دراعة. وإن كان الشتاء لبس مكان ذلك فوق القميص جبة ذات أكمام من ملف أبيض جيد وربما لبس تحت الجبة ثوباً ذا أزرار من ملف أخضر مسني أو زرعي ولعله هو الذي يقال لغة الفروج أو قرب منه، ويشتمل على جميع ذلك كساء صوف رقيق وهو الذي يسمى في الغرب بالحائك... الخ.

ألاحظ أن كلاً من مفردات «القشابة» و«الملف» و«الحائك» غير موجود في المعاجم التي وضعت في الشرق — قديمة كانت أو حديثة — بينما كان وما زال معروفاً وشائعاً في المغرب العربي. أضف إلى ذلك أن المعاجم الشرقية — قديمة كانت أو حديثة — تشتمل على مفردات كثيرة شاع استعمالها في الشرق وإن كانت دخيلة (من مفردات فارسية وتركية وغيرها) وهي غير معروفة وغير مستعملة في الغرب الإسلامي.

أما كلمات «القشابة» و«الملف» و«الحائك» فكل منها مدخل خاص في *Supplément aux dictionnaires arabes* لـ R. Dozy أو في معاجم اللغات المغربية العامة.

إن المقرئ كان يتحدث عن لغة أهل الأندلس بشيء من الإزدراء — مع أنه كان معجباً بحضارة الأندلس الإسلامية — وكذلك ابن خلدون عندما تحدث عن «فساد» اللغة العربية في الأمصار الإسلامية الكبرى لعهد بالنسبة للغة مضر، ولعله لو عاش في عصرنا هذا واطلع على مقالات الصحف العربية لتحدث عن فساد اللغة العربية الحديثة أيضاً.

أما أنا — وهذا رأي شخص ليس من أبناء اللغة العربية — أفضل أن أتحدث في هذا المضمار عن حيوية اللغة العربية ونشاطها المستمر عبر العصور والبلدان التي انتشرت فيها.

وألاحظ أن ذلك الاتجاه، أي تلك «الفلسفة اللغوية» لقاموس الأستاذ تجيني هي التي جرى عليها Marcelin BEAUSSIER في أواخر القرن الماضي لما وضع معجمه الضخم الذي عنوانه الكامل :

Dictionnaire Pratique Arabe — Français contenant tous les mots employés dans l'Arabe Parlé en Algérie et en Tunisie, ainsi que dans le style épistolaire, les pièces nouvelles et les actes judiciaires.

«معجم عملي عربي — فرنسي يحتوي على جميع الألفاظ المستعملة في لغة التخاطب بالجزائر وتونس، وعلى الألفاظ المتداولة في الرسائل والمستندات العادية والرسوم القضائية».

أما فيما يتصل بتلك التجربة الأولى التي قمت بها في دراستي اللغة العربية على هذا النمط وبوسيلة تلك الأدوات اللغوية، فأقول إنها كانت ناجحة وإيجابية لأنها قامت مقام الأساس الذي استطعت فيما بعد أن أبني عليه أثناء دراستي اللغة العربية الفصحى.

ولكن المرحلة الثانية — وهي مرحلة دراسة اللغة العربية الفصحى ابتداء من السنة الثالثة إلى آخر الدراسات الثانوية — لم تكن ناجحة ولا منتجة بالنسبة لي ولا لزملائي.

وهذا راجع إلى ما كان يجري عليه معظم أساتذة اللغة الأجنبية من طرق تربوية سيئة. ذلك أنهم كانوا يدرسون اللغات الأجنبية — سواء كانت عربية أو إنجليزية أو غيرها كأنها لغات جامدة شبه ميتة لم تنتج إلا أدبا قديما مملا لا يمت إلى حياتنا وإلى حياة معاصرنا بصلة. فلم أبدأ أشعر بأن اللغة العربية الفصحى لغة حية وعصرية وغنية إلا بعد انتقالي إلى ثانوية الرباط الرسمية، في قسم البكالوريا، حيث كان يدرس أستاذ جزائري وهو يشوقنا إلى الأدب العربي الحديث وإلى نشاط كتاب النهضة العربية الحديثة.

وفما يتعلق بالأدوات المعجمية، لم تكن القواميس الجديدة المتهمة باللغة العربية الحديثة قد صدرت بعد فكنا نستعمل القاموس المزدوج عربي — فرنسي / فرنسي — عربي الذي ألفه الأب استشرى J.B. BELOT.

وكان هذا المعجم ومازال مرجعا يستفيد منه الطالب الفرنسي، إلا أنه أعوزه كل ما في الأدوات المعجمية التي صدرت عنئذ من مفردات اللغة العربية الفصحى المتداولة الآن في كل ميادين الحياة المصرية.

إني في الحقيقة لم أبدأ أستفيد من دراستي اللغة العربية الفصحى إلا بعد انتقالي إلى الدراسات الجامعية في معهد الدراسات المغربية

العليا بالرباط : فجمعت فيه بين دراسة اللغة الفصحى والتعمق فيها من جهة، وبين دراسة اللغة العامية المغربية والتعمق فيها من جهة أخرى، وأضفت إلى ذلك اللغة الأمازيغية.

ثم التحقت بكلية الآداب التي حلت محل المعهد بعد الاستقلال وتسجلت في القسم العربي من فرع الآداب العربية حيث درست على عدة أساتذة مغاربة ومشاركة.

وبدأت استعمل مباشرة المعاجم العربية الاحادية اللغة «كالمعجم» و«المعجم الوسيط»، إلى جانب المعاجم المزدوجة اللغة كمعجم KASIMIRSKI والقواميس الوجيزة مثل قاموس Léon BERCHER

Lexique Arabe — Français Pour l'étude de l'Arabe moderne

ومثل قاموس L'Arabe vivant : Charles PELLAT

ومنذ ذلك الحين قد صدرت عدة معاجم أخرى أستعملها الآن أيضا — كالمجل وغيره — كما مازلت استعمل القواميس التي ذكرتها آنفا، كما استعمل المعاجم العربية القديمة الكبرى كلما اقتضاه الأمر، منها القاموس المحيط للفيروزآبادي ولسان العرب لابن منظور وغيرهما.

ولكل معجم من هذه المعاجم وغيرها فوائده الخاصة بالنسبة لحاجات الطالب أو الباحث الأجنبي، إذ لا يستطيع معجم واحد أن يلام جميع حاجاته فيجب عليه أن يأخذ من هنا وهناك خصوصا وأن ميادين الدراسة متنوعة من جهة وأن اللغة العربية الحديثة مازالت ولا تزال تتنوع وتتطور بسرعة عجيبة سواء في إطلاق الأسماء على الأشياء والمعاني والتصورات أو في خلق التعبيرات المختلفة واختيار مواضيع استعمالها في اللغة العامة المشتركة بين البلدان العربية.

نتيجة ذلك كله أنني حصلت على اللغة العربية بوسيلتين، بل عن طريقين متوازنين :

طريق اللغة العامية، بأدواتها اللغوية الخاصة من جهة وطريق اللغة الفصحى من جهة أخرى بما فيها من مظاهر وخصائص مختلفة على حسب الميادين التي تستعمل فيها اللغة من دين وأدب قديم وتاريخ وفلسفة وأدب حديث إلى آخر ذلك من الميادين غير ميادين العلوم البحتة.

نعم هما طريقان متوازنان ولا سيما إذا اعتبرنا الطرق التربوية التي يجري عليها في تحصيل كل من النوعين لأن اللغة الفصحى لها قواعدها ومفرداتها وتركيبها وتعايرها الخاصة بها ومواضيع

وعلى كل حال أحتاج — بصفتي أجنبيا ناطقا بلغة أخرى وباحثا في اللغة العربية — أحتاج الى عدة أنواع من المعاجم : من معجم تكون فيها اللغة خالصة أكثر ما يمكن الخلوص الى معاجم اللغات العامية إذا وجدت، وبين هذين النوعين المعاجم الوسيطة المستحدثة التي توضع في البلدان العربية حاليا.

وأرى — وهذا رأي شخصي لا أفرض على أي واحد أن يشاركني فيه وإنما أعبر عنه في إطار هذه الدورة العلمية والعملية التي تتبادل فيها الآراء — أرى شخصيا أن واضعي المعاجم العربية للناطقين باللغات الأخرى لأبأس من أن يتنازلوا أحيانا وشيئا ما عن صفاء لغة مضر وعن فصاحة لغة الجاحظ وعن بلاغة لغة المتنبئ بل وحتى عن جمال لغة بعض كتاب النهضة كلغة طه حسين أو غيره، فيعدّوا للمتعلّمين الأجانب، ثم للباحثين الأجانب، أدوات معجمية تقرب إليهم المقصود وهو الفهم والافهام «وهذا هو معنى اللغة واللسان» كما قال ابن خلدون.

شأن واضعي المعاجم في هذا المضمار شأن المقدسي الرحالة المشرقي الشهير للقرن الرابع هـ/العاشر م. صاحب كتاب «أحسن

التقاسيم في معرفة الأقاليم»، فالمقدسي في مقدمة كتابه خصص فصلا «لذكر الأسامي واختلافها»، فبعد أن تعرض لذكر الأماكن التي تتفق أسماؤها وتباين مواضعها — كالسوس مثلا الذي هو «كورة بأقصى المغرب ومدينة بأوله»، تعرض لذكر «الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم» مثل لحام — جزار — قصاب/قدر — برمة/نزع — فلاح — حراث/.... الخ.

ثم زاد قائلا :

«ونحو هذا كثير، وإن استوعبناه طال الكتاب، وستكلم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم ونضرب من أمثالهم لتعرف لغتهم ورسوم فقهاءهم. فان كنا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام لأنها لغة اقليمي الذي به نشأت وناظرت على طريقة القاضي أبي الحسين القزويني لانه أول إمام عليه درست. ألا ترى الى بلاغتنا في إقليم المشرق بأنهم أصبح الناس عربية لانهم تكلفوها تكلفا وتعلموها تلقفا، ثم الى ركافة كلامنا في مصر والمغرب، وقبحه في ناحية البطائح لانه لسان القوم، لان قصدنا في هذا الأصل الانهاء والتعريف لا المبالزة والتشفيغ».